خطبة صلاة الجمعة 10/ 5/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(منزلة الخشوع)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربعُ سنين"، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن"، وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا تلا الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: 16] قال: «بلى يا ربّ، بلى يا ربّ».

أيها الإخوة:

كل عام وأنتم بخير، وأسأل الله أن يجعل رمضان زيادة قربٍ لنا إليه، فلا تمرّ لحظةٌ من لحظاته إلا بعلم نافع أو عمل صالح.

السير إلى الله هو المقصد الأسمى للمرء من حياته على هذه الأرض، فالعاقل يجعل خطواته خلال هذا العمر القصير نحو رضا ربه؛ ليموت يوم يموت وهو أقرب ما يكون لرحمة الله وعفوه ورضاه وغفرانه، فلا ينقطع سير السالك إلا بالموت.

وقد شح العارف بالزمان أن يذهب ضائعاً في غير السير إلى الله، ففي الخبر: **«لا بورك لي في يوم لم أزدد فيه من الله قربا»** و **«من استوى يوماه فهو مغبون ومن كان يومه شراً من أمسه فهو محروم»** وفيه

عن رسول الله «إِذَا أَتَى عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عِلْمًا، فَلَا بُورِكَ فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ» [المعجم الأوسط].

ولأن السير يفيد مضياً وجرياناً، ويفيد امتداداً واستمراراً؛ ترى السالك إلى الله يمشي إليه سبحانه بهمة ومضي وجريان لا بتكاسل وخور وضعف، ويمشي مستمراً مستقيماً متتابعاً، لا ينقطع ولا يروغ روغان الثعالب.

أيها الإخوة:

- لماذا يستجيب قوم للحق في الخصومات بينما يعرض آخرين ولا يستجيبون ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: 48 - 50]؟!.

- لماذا تقشعر جلود قوم عند تلاوة القرآن وتلين قلوبهم بينما تقسو قلوب آخرين وجلودهم ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]؟!.

- لماذا يرضى قوم بقضاء الله تعالى وقدره ولو صعب عليهم، فتجد الصبر شعارهم والسكينة دثارهم، بينما يسخط قوم ويضجرون ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 146 - 148]؟!.

- لماذا يصلي الرجل فتبدو الكعبة بين عينيه والجنة عن يمينه ويُذَرُ النورُ فوق رأسه حين يقرأ وحين يركع وحين يسجد وحين يرفع، بينما يدخل آخر في الصلاة فلا يفقه كم صلى وكم قرأ، حال الأول أرحنا بها، وحال الثاني: أرحنا منها! ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1، 2]؟!.

- لماذا يراعي قوم الحلال والحرام في كسبهم وسعيهم ويجعلون دنياهم مطية لآخرتهم، بينما لا يأبه إلا للدنيا آخرون سواء جاءت من حلال حرام ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

خَلَاقٍ (200) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 200 - 202].

لماذا تتطامن نفوس رجال وتتواضع وهم كبار، بينما تتعالى نفوس آخرين وتتكبر وهم صغار ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 206، 207].

عنوان الخطبة: منزلة الخشوع

الخشوع هو الاتّضاع لنظر الحق إليك، والرضا بالحكمين الشرعي والقدري.

فالاتضاع لنظر الحق هو حياؤك من نظر الله تعالى إليك، وخوفك من اطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح.

ويحتمل أن يكون هذا الاتضاع لنظر الله تعالى إليك في الدنيا فهو جل جلاله يرى تقصيرك وقبيحك فيخشع قلبك لهذا النظر الجليل، ويحتمل أن يكون خشوعك في الدنيا نتيجة معرفتك بنظر الله تعالى إليك في الآخرة حين تقف بين يديه بالنقص والتقصير وهو جل جلاله مطلع على تفاصيل ما قدمت ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 45، 46].

وأما الرضا بالحكم الشرعي فأن ترضى بأمر الله ونهيه ولا تعارضه برأي أو شهوة.

استأذن الحر بن قيس لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزْل (أي العطاء الكثير)، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله.

وأما الرضا بالحكم القدري فأن ترضى عن قضاء الله وقدره فلا تتلقاه بالتّسخّط والكراهية والاعتراض.

أصابت الآفة إبل أعرابي فأهلكته – والإبل أنفس أموال العرب – فجاء المعزون إليه فأنشأ يقول:

لا والذي أنا عبدٌ من خلائقِهِ   والمرءُ في الدهرِ رِزْءُ الهمِّ والحزنِ

ما سرّنِي أنّ إِبلِي فِي مباركِهَا   وما جرى من قضاءِ اللهِ لم يكنِ

فمن اتضع لنظر الحق إليه ورضي بالحكم الشرعي والقدري فهو الخاشع.

وقيل: الخشوع هو قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه، فمن دوام قلبه مراقبة ربه خضع لأمره وحكمه، وتواضع لخلقه.

وقيل: الخشوع إشراق نور التعظيم في القلب، فمن عظم قلبه ربه أشرقت أنوار الهيبة عليه وسكنت نيران الشهوة لديه، وقال الإمام الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

ومهما يكن من أمر – أيها الإخوة – فقد أجمع العارفون على أن (الخشوع) محله القلب وثمرته على الجوارح وهي تظهره.

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته في الصلاة فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"** [السنن الكبرى للبيهقي]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم **«التقوى ههنا وأشار إلى صدره ثلاث مرات»** [مسلم].

وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن، ورأى سيدنا عمر بن الخطّاب رضي الله عنه رجلا طأطأ رقبته في الصّلاة. فقال: «يا صاحب الرّقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرّقاب إنّما الخشوع في القلوب».

أيها الإخوة:

هذا الخشوع هو الذي يجعل أقواماً يستجيبون للحق في الخصومات؛ إذ الخشوع رضا بالحكم الشرعي، بينما فاقد الخشوع لا يستجيب للحق ولو ظهر له.

هذا الخشوع هو الذي يجعل جلود أقوام تلين عند تلاوة القرآن وقلوبهم؛ إذ الخشوع اتّضاع لنظر الحق إليك، بينما فاقد الخشوع يقسو قلبه وجلده.

هذا الخشوع هو الذي يجعل أقواماً راضين بقضاء الله وقدره ولو صعب عليهم؛ إذ الخشوع رضا بالحكم والقدري، بينما فاقد الخشوع يضجر ويتسخط.

هذا الخشوع هو الذي يدع الرجل في صلاته مطمئناً تذرف عينه ويوجل قلبه؛ إذ الخشوع اتّضاع لنظر الحق إليك، بينما فاقد الخشوع لا يفقه من صلاته إلا ما ندر.

هذا الخشوع هو الذي يدع أناساً يراعون الحلال والحرام في أقوالهم وأعمالهم؛ بينما لا يلتفت لذلك فاقدو الخشوع.

هذا الخشوع هو الذي يورث قوماً كباراً التواضع لأنهم يراقبون أنفسهم في نظر الحق؛ بينما فاقدو الخشوع يتكبرون ويتجبرون.

فإذا كان للخشوع أيها الإخوة هذا الشأنُ كله فكيف يكتسب أحدَنا الخشوع:

الجواب: أربعة تورثك الخشوع:

أولها: الإكثار من ذكر الله مع استحضار جلاله وعظمته:

إذ الخشوع نتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل، ومن رُزق ذكر الله تعالى مع مراقبة جلاله أورثه ذلك خشوعاً في الصلاة وفي غير الصلاة، بل في خلوته وفي سوقه وفي بيته وفي سائر شؤونه، ولذلك روي عن بعض الصالحين أنه كان يتحرج من رفع رأسه إلى السماء حياء من الله سبحانه وخشوعاً له، وكان الربيع بن خيثم من شدة غضه لبصره وإطراقه يظن بعض الناس أنه أعمى، وكان يختلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رأته جاريته قالت لابن مسعود صديقك الأعمى قد جاء، فكان يضحك ابن مسعود من قولها، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقاً غاضاً بصره، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول "وبشر المخبتين" أما والله لو رآك محمد صلى الله عليه وسلم لأحبك.

ثانيها: تذكر آفات النفس والعمل:

فمطالعة عيوبِ النفس والأعمال ونقائصِهما: من الكبر، والعجب، والرّياء، وضعف الصّدق، وقلّة اليقين، وتشتّت النيّة وعدم إيقاع العمل على وجه يرضاه الله تعالى وغير ذلك يورثك قلباً خاشعاً منكسراً على باب الله تعالى.

ثالثها: رؤية فضل كلّ ذي فضل عليك:

فتراعي حقوق النّاس فتؤدّيها، ولا ترى أنّ ما فعلوه فيك من حقوقك عليهم، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم وتنسى فضل نفسك.

قال الصالحون: "العارف لا يرى له على أحد حقاً، ولا يشهد له على غيره فضلاً، ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب"، وكان أحد الصالحين إذا أثني عليه في وجهه يقول: ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء، والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كلَّ وقت، وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً.

أنا الفقيرُ إلى ربِّ البرياتِ ... أنا المِسيكينُ في مجموعِ حالاتي

أنا الظلومُ لنفسِي وهي ظالمتِي ... والخيرُ إنْ يأتِنا من عنده يأتي

لا أستطيعُ لنفسي جلبَ منفعةٍ ولا عن النفسِ لي دفعُ المضراتِ

وليسَ لي دونِهِ مولىً يدبّرني ولا شفيعَ إذا حاطتْ خطيئَاتِي

رابعها: اللحاق بمجالس العلم:

تتعلم فيها الأحكام الشرعية لتقف عليها وتجتمع فيها بأهل الخشوع فتتأسى بهم، وتحفك الملائكة وتنزل عليك السكينة ويذكرك الله فيمن عنده.

أخرج الأمام مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«اللَّهمَّ آتِ نَفسي تقْوَاها، وزَكِّها أَنت خَيرُ مَنْ زكَّاهَا، أَنتَ وَلِيُّها ومولاها، اللَّهمَّ إِني أَعوذ بك من علم لا ينفعُ، ومن قَلبٍ لا يَخشَع، ومن نَفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تُستَجَاب»**.

والحمد لله رب العالمين